ISSN: 2170- 1636---EISSN 2600- 6324

القبائل الهلاليّة في مشاريع الإخضاع السياسية الموحدية من خلال الرسائل والتقاديم

Hilalian Tribes in the Almohad Political Subjugation Projects through Missives and Appointment Ceremonies

اسم ولقب المؤلف المرسل: محمّد بن ساعو- Bensaou Mohamed صص86-104
الدرجة والعنوان المهني: طالب دكتوراه علوم- جامعة محمد بوضياف- المسيلة
البريد الإلكتروني: mohammed.bensaou@univ-msila .dz

تاريخ استقبال المقال: 2019/12/31 تاريخ المراجعة: 2020/01/20 تاريخ القبول: 2020/02/13

الملخص: ورث الموحّدون فضاء جغرافيا شاسعا يتميّز بتنوع تركيبته الاجتماعية، وأمام مساعيهم لتوحيد المغرب الإسلامي وإخضاع ساكنته؛ كان التعامل مع الهلاليين- الذين وفدوا إلى بلاد المغرب في القرن الخامس الهجري(11م)- يستدعي استراتيجية محكمة متعددة الأدوات ومتنوعة الآليات لضمان الاستقرار السياسي والتوافق الاجتماعي والسيطرة على المجال من جهة، ولتوظيفهم في إنجاح المشروع السياسي الموحّدي من جهة أخرى، وبخاصة في شقه المتعلق بالعدوة الأندلسية التي كان الحكم الإسلامي بها يتميّز بتراجع كبير، لذلك تسعى هذه الورقة البحثية إلى رصد الآليات الموحّدية في إخضاع القبائل الهلالية، مع التركيز على طبيعة هذه الآليات سواء على مستوى الأدوات والنظم أو النصوص والخطابات...، وهي في مجملها تعكس منظور ورؤية السّلطة الموحّدية للتعامل مع العناصر البدوية، بخاصة وأن مسألة إخضاع المجموعات البدوية شكّلت هاجسا لدى القوى السياسية الكبرى عبر التاريخ، وحتى ندرك العمق الاستراتيجي لهذه الآليات وتوظيفاتها اعتمدنا في صياغة بحثنا بالأساس على المصادر الموحّدية الرّسمية المتمثلة في الرسائل والتقاديم.

سنرصد من خلال هذا المقال آليات الإخضاع المباشرة وغير المباشرة التي تبنتها السلطة الموحدية، من إخضاع عسكري وسلمي، في محطات الاحتكاك الأولى، ثم توظيف الخطاب الديني لتطويع السلوك الموحدي، إلى جانب إتقان فقه التعامل مع الزعامات الهلالية، وتبني النظم والتقاليد الإدارية في تنظيم شؤون العرب كمراسيم التعيين والبيعة

PDF Creator Trial

وإشراكهم في الاحتفالات، فضلا عن سياسة تحييدهم عن الحركات التمردية التي عرفتها المنطقة.

الكلمات المفتاحية: الهلاليون- الموحّدون- الإخضاع- المغرب الإسلامي- القبائل العربية- الأندلس- المشروع الموحدي- شيوخ العرب- الحركات التمردية- المراسيم.

ABSTRACT: *The Almohads inherited a vast geographical space characterized by the diversity of its social structure. While endeavoring to unify the Islamic Maghreb and subjugate its inhabitants, they had to deal with the Hilalians, who had already settled in the Islamic Maghreb in the fifth century AH (11 A.D.).*

This endeavor required a tight multi-tool strategy and a variety of mechanisms to ensure political stability, social harmony, and control over this space, on the one hand, and to use the Hilalians in realizing the Almohad political project on the other hand, especially the part of it that was related to the Andalusi side, where Islamic rule was already retreating significantly.

This research paper seeks therefore to monitor the Almohad mechanisms that were used in the subjugation of Hilalian tribes, focusing on the nature of these mechanisms, whether at the level of tools, systems or texts and discourses. The latter reflect, in their entirety, the Almohad authority's vision and approach to dealing with nomadic elements, especially since the issue of subjugating nomadic groups was problematic for the majority of political forces throughout history. In order to grasp the strategic depth of these mechanisms and their use, this study relies mainly on official Almohad sources consisting of missives and appointment ceremonies.

Through this article, we will monitor the mechanisms of direct and indirect subordination adopted by the Almohad authority, both militarily and peacefully, at the first friction stations. Then he used religious discourse to adapt the behavior of Banu Hilal as well as to master the jurisprudence of dealing with their leaders and elders. The Adoption of administrative systems and traditions in organizing Arab affairs, such as appointments, and trying to involve them in celebrations. As well as, the policy of neutralizing them from the rebellious movements in the region.

Keywords: Hilalians; Almohads; Subjugation; Islamic Maghreb; Arab tribes; Al-Andalus; The Almohad project; Arab sheikhs; Rebel movements; Edicts.

1- المقدمة: أسفرت هجرة الهلاليين- التي انطلقت على عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (420-436هـ/1029-1094م)، من مصر نحو المغرب الإسلامي- عن تغيّرات كبيرة انعكست على الأوضاع السياسية والتركيبة الديمغرافية والحياة الاجتماعية والمناخ الاقتصادي في المغرب الإسلامي، وإن كانت الكثير من التحوّلات التي أحدثتها هذه الحركة الديمغرافية التي

PDF Creator Trial

توصف بالهائلة قد كانت سريعة؛ إلا أن آثارها امتدت على المدى المتوسط والبعيد، ورغم محاولات الزيريين والحماديين[1] لإدماج القبائل العربية، إلا أن مساعيهم باءت بالفشل، فاستمر تهديد هذه القبائل بما يشكله من خطر على السلطة، هذه الأخيرة منحتهم الامتيازات وتنازلت لهم عن مجالات واسعة واستراتيجية، والأكيد أن ضعف الصنهاجيين خلال هذه الفترة كان ظرفا حرجا استغله بنو هلال لمدّ نفوذهم، وفتح شهيتهم للتوسع وزاد من أطماعهم.

لقد شكّل تعامل السلطة الصنهاجية في إفريقية والمغرب الأوسط مع المهاجرين الهلاليين تراكما في باب التفاعل مع هذه الحركة الديمغرافية الوافدة، وبإيجابيات وسلبيات هذه التجربة، ورث الموحّدون المجال بتركيبته غير المستقرة، فكان التفكير في إخضاع الهلاليين واحدا من التّحديات التي راهنت عليها السلطة الجديدة وهي تتوسّع شرقا، من أجل ضمان الاستقرار السياسي في بلاد المغارب والحد من تحركاتها الفوضوية، خاصة وأن الهلاليين كانوا ورقة تسعى إلى توظيفها الحركات التمرّدية الداخلية وحتى محاولات مدّ النفوذ الخارجية، وبالتالي فإن السلطة الموحدية سعت إلى إخضاع الهلاليين؛ والبعد الآخر كان يهدف إلى توظيف العناصر الهلالية في المشروع الموحّدي بالأندلس، بحيث تستثمر طاقتها العسكرية وقدرتها على الحشد في إنجاح المشروع السياسي الموحدي، خاصة إذا علمنا أن هذه القبائل لم يكن لديها مشروع سياسي قائم، وهو ما تؤكده طبيعة هذه القبائل ورصيدها السياسي.[2]

إن المعطيات التاريخية المتعلقة بالطبيعة البدوية[3] للهلاليين وتحركاتهم وأثرها على المحيط، والتي يصنّفها ابن خلدون في خانة "العدوان"، لأنهم كانوا يعيشون على ما تجنيه رماحهم، ولا يبتغون من وراء ذلك سلطانا[4]، وكانوا ينزعون إلى الحصول على مرادهم بأخف الأضرار دون إنهاك أنفسهم في المواجهات والحروب، وإلى جانب ذلك فقد ارتبطت القبائل العربية بمعطى جغرافي تضاريسي، بحيث يقبلون على المناطق السهلية وبخاصة تلك التي تشهد ضعف السُّلط السياسية أو انهيارها، ولا يقبلون عن المناطق الجبلية والوعرة[5]، كل هذه الاعتبارات وغيرها مما سنذكره في ثنايا الموضوع، أسهمت في بلورة التصور الموحدي في إعداد استراتيجية سياسية- عسكرية بالدرجة الأولى في التعامل مع العناصر الهلالية من أجل إخضاعها وضمان ولائها، ثم توظيفها في إنجاح سياستها التوسعية.

PDF Creator Trial

إن أغلب المصادر التي تناولت تاريخ الهلاليين في الغرب الإسلامي، هي تلك التي أفرزتها دوائر السلطة ومؤرخيها، بمعنى أن تاريخهم يكاد يكون مكتوبا من جانب واحد، وهو ما يطرح إشكالية كبيرة على هذا المستوى؛ غير أن طبيعة المدخل الذي اخترناه في دراسة العلاقة بين الهلاليين والموحدين ضمن الرؤية السياسية التي بلورت السلطة وفقها استراتيجيتها الإخضاعية، جعلتنا نصوّب اهتمامنا على نصوص الرسائل والتقاديم الصادرة عن الدوائر الرسمية، لأنها تعكس جانبا مهما من آليات الإخضاع التي تبنّتها الدولة الموحدية تجاه الهلاليين.

انطلاقا مما سبق، فإن الورقة البحثية تهدف إلى ملامسة الإشكالية الرئيسة لموضوع الإخضاع الموحّدي للقبائل الهلالية في جانبه السياسي والعسكري، وضمن هذه الإشكالية تندرج جملة من التساؤلات التي نحاول صياغتها على النحو الآتي: ماهي مرتكزات الاستراتيجية الموحّدية في إخضاع القبائل الهلالية وإدماجها في خدمة مشروعها السياسي؟ هل استفاد الموحّدون من تجربة السلطة الصنهاجية في التعامل مع القبائل العربية؟ إلى أي مدى تميّزت هذه الاستراتيجية بالتناسق مع الخطوط العامة للعقيدة السياسية والمذهبية للموحّدين؟ كيف نقيّم الموازنات التي حاولت السلطة تكريسها من خلال تنويع آليات الإخضاع؟ هل يمكن القول إن ترسانة الأدوات الموظّفة مكّنت من تجسيد جزء من المخطط الموحّدي؟

هذه التساؤلات وغيرها يمكن مقاربتها من خلال العناصر التي تحاول في مجملها رصد الآليات الإخضاعية، حيث ارتأينا تقسيمها إلى مستويين اثنين: آليات الإخضاع المباشر وآليات الإخضاع غير المباشر، ذلك أننا نرى بأن الرؤية الهلالية كانت عمودية وأفقية، وهو ما تؤكده المصادر التاريخية التي عالجت مسألة إدماج القبائل الهلالية، ثم إن هذه الاستراتيجية تمكنت من تحقيق إخضاع جزئي ومرحلي، لكنه في نفس الوقت كان محاطا بجملة من الصعوبات والمنزلقات، التي تعود بالأساس إلى طبيعة وتركيبة العناصر البدوية الهلالية، وأيضا إلى الوضع الجيو-سياسي للدولة الموحدية.

2- آليات الإخضاع المباشر:

2-1 الاخضاع العسكري... معركة سطيف 548هـ/1153م نموذجا: بعد قضاء الموحدين على الحكم المرابطي نهائيا سنة 1147م، بالاستيلاء على عاصمتها مراكش، أخذوا يتوسعون شرقا في حملة عسكرية تحت قيادة الخليفة عبد المؤمن بن علي، حيث وصلوا سنة 1153م

PDF Creator Trial

إلى بجاية الحمادية التي استولوا عليها، حينها أدرك الهلاليون المتمركزون في الأجزاء الشرقية من المغرب الأوسط وفي إفريقية أن الموحّدين يشكلون تهديدا مباشرا لهم وللامتيازات التي حصلوا عليها.

أ. تحضيرات الطرفين: لفتت التحركات الهلالية في المناطق الشرقية المجاورة اهتمام الموحّدين، بخاصة وأن القبائل الهلالية كانت تقوم بتتبع الكتائب الموحّدية، وفي ظل هذا الجو المتّسم بالضبابية وغياب الثقة بين الطرفين والتوجّس، شرع الهلاليون في التحضير لمواجهة الموحّدين، ويبدو أن الطرفين كانا مدركين لحتمية الصدام، لكن قبل الاحتكاك العسكري بين الطرفين تبادلا الرسل والرسائل.[6]

على إثر هذه المعطيات تنادت القبائل الهلالية، واجتمعت تحضيرا للاشتباك مع الموحدين الذين سارعوا بدورهم لجمع ثلاثة آلاف (3000) فارس، واتجهوا من متيجة نحو الشرق، ويبدو أن التحضيرات للمعركة من الجانبين قد أخذت صدى كبيرا، ووصلت أخبارها إلى خارج المغرب الإسلامي، حيث راسل حاكم صقلية النورماني "روجر الثاني" Ruggero II (1095-1154م) أمراء العرب يعرض عليهم مساعدتهم بخمسة آلاف (5000) فارس مقابل تسليمه الرهائن الموحدين، لكن الهلاليين رفضوا العرض من منطلق عدم التحالف مع غير المسلمين في قتال المسلمين.

راهن بنو هلال على جمع أكبر عدد من عناصرهم المنتشرة في إفريقية وشرقها إلى غاية جهات الإسكندرية، حيث راسلوا جميع من هناك لمد يد العون والمدد، موظفين خطابات استنهاض حماسية قوية، وحاولت القيادات الهلالية إقناع جموع العرب بتفوقهم العسكري على الموحّدين، وبالتالي الحديث عن سحقهم، وبهذه الدعاية والخطاب المرتكز على العصبية القبلية، نجح الهلاليون في جمع عدد كبير من المقاتلين والقبائل استعدادا لمواجهة الموحّدين: "... فلم تزل جيوشهم على جهات قسنطينة تتوارد، وكتائبهم تتعاقد على الاعتزام وتتعاقد، وأمدادهم التي غصّت لها تلك المشارع المعينة والموارد، تتناصر على رأيها الخاسرة وتتعاضد، إلى أن انتهوا ما لا ينتهيه العدُّ خيلا ورجلا، وعمّروا أنجاد تلك الأرض وأغوارها وعرا وسهلا، فما استطاعتهم حملا، ولا وسعت أن تكون لهم قرارا ولا أن تكون لها أهلا".[7]

يبدو أن الجدية التي أظهرها الهلاليون في استعداداتهم جعلت الموحّدين يفكرون في استراتيجية تتيح لهم الانتصار عليهم بإمكانيات بشرية أقل، بخاصة مع الأعداد الكبيرة من المقاتلين التي جمعها الموحدون، رغم أن المعطيات تشير إلى أنهم لم يكونوا قد برمجوا مسبقا

PDF Creator Trial

مواجهة بهذا الحجم مع الهلاليين وفي هذا الظرف، لكن التغول الهلالي في المنطقة أجبرهم على الدخول في خط المواجهة، خاصة وأن تحركات الطرفين كانت مكشوفة.

بالموازاة مع التحضيرات الهلالية كان الموحّدون يتقدمون نحو الشرق، وقد استقر الجيشان أخيرا قرب منطقة تسمى "وادي الأقواس"[8] في جهات سطيف، لكن يبدو أن تخييم الطرفين في هذه المنطقة إلى غاية اندلاع المعركة قد أخذ وقتا، لأن الموحّدين كانوا في انتظار وصول خطاب التصريح بالمواجهة من الخليفة الموحّدي بجهات متيجة، مع وصول إمدادات عسكرية إضافية من هناك[9]، وفي الوقت نفسه يظهر أن الهلاليين لم يستعجلوا المعركة، وربما كانوا هم أيضا في انتظار استقبال المزيد من الحشود القادمة من الشرق.

ب. سير المعركة: عند إشراقة شمس ضحى يوم 27 أفريل 1153م بدأت المعركة، والتي لا تتوفر بحوزتنا الكثير عن تفاصيلها، لكن يبدو أن الموحدين تمكنوا منذ البداية من ترجيح الكفة لصالحهم، حيث قضوا على أعداد كبيرة من الهلاليين، وإلى جانب تقدّمهم العسكري، لم يفرطوا في تحصيل المغانم الكثيرة من إبل وأبقار وأغنام: "حيّ إلى جنب حيّ، وشيء متّصل بشيء، مسيرة أربعين أو خمسين من الأميال"[10]، وقد جعل ذلك الهلاليين يتفرقون ويهربون من القوات الموحّدية، مما أدى إلى تفكك كتلتهم، وسهّل على الموحّدين الانتصار عليهم.

في اليوم الثاني (28 أفريل 1153م) انقسمت الجيوش الموحّدية إلى فرق، وقامت بتتبع المجموعات الهلالية التي تفرّقت في المنطقة بعد الانتصار الكبير الذي حقّقه الموحّدون، وقد استمرّت عملية التتبّع لأكثر من أربعة أيام في بعض الجهات، فقد وصلت الفرق الموحّدية إلى مشارف إفريقية[11]، وبالتالي فإن المعركة كمواجهة مباشرة دامت يوما واحدا فقط، ويمكن تفسير انقسام الجيش الموحّدي إلى مجموعة من الفرق، حتى يضمنوا سرعة التحرك، وملاحقة أكبر عدد من الهلاليين، وبالتالي جمع أكبر قدر من المغانم، والاستيلاء على المنقولات الخفيفة التي حملها الهلاليون معهم خلال فرارهم، إضافة إلى تأمين المنطقة لتحقيق عودة آمنة إلى المغرب الأقصى، وتلافي عودة الهلاليين في هجوم معاكس ضد الموحّدين، كما أن هذه الملاحقة كانت فرصة لإخضاع ما تبقى من قبائل مجاورة.

انتهت المعركة بانتصار كاسح للموحّدين على الهلاليين، وتحصيلهم لمغانم كثيرة، والتي نقلت إلى العاصمة مراكش، وقد اعتبر الخليفة عبد المؤمن بن علي هذا الانتصار بمثابة الفتح العظيم[12] لأنه كان يدرك أن إخضاع القبائل الهلالية هو بشكل آخر إخضاع

PDF Creator Trial

للمنطقة؛ وكخطوة لاسترضاء الهلاليين أعاد الموحدون تسليم النساء والأطفال الأسرى الذين نقلوهم إلى مراكش للهلاليين، وهو نوع من الاستمالة والاستدراج السياسي لكسب الرضى عن السلطة الموحدية، فرغم الانتصار الموحدي الكاسح على الهلاليين، إلا أنهم تعاملوا معهم بمنطق الاستقطاب.

تعتبر المعركة حدثا مهما في تاريخ الوجود الهلالي ببلاد المغرب، فهي أول مواجهة مباشرة بين الطرفين، جعلت الهلاليين يتجهون نحو تقبل السلطة المحلية، وهي أيضا من أهم أبواب إدماج الهلاليين في بلاد المغرب وخدمة مشاريع سُلَطِهِ.

صحيح أن معركة سطيف لم تكن المواجهة العسكرية الوحيدة في سجل العلاقات بين الهلاليين والموحدين، لكنها كانت الأكبر والأهم على الإطلاق، وهو ما جعل الموحدين يستمرون في استذكارها في رسائلهم، كتلك الرسالة المؤرخة في 10 محرم 555هـ (يوم عاشوراء) بمناسبة خبر فتح المهدية، وتحدثت عن انتصارات الموحّدين السابقة، ذكرت متحدّثة عن العرب: "... ثم تسيير الفتح الأعظم في هزيمتهم وغنيمتهم"[13]، وهذا يدلّ على جسامة الهزيمة التي تلقّاها العرب في سطيف، وحجم الغنائم التي عادت للموحّدين إثر انتصارهم، وإلا لما بقت الواقعة ونتائجها تذكر في الأدبيات الموحّدية الرسمية بعد مرور أكثر من ست (06) سنوات.

2.2 الإخضاع السلمي: لم يقتصر إخضاع الموحدين للقبائل الهلالية على العمل العسكري فحسب، بل إن بعضها دخل في الصف الموحدي سلما، مثلما حدث سنة 554هـ عندما كان عبد المؤمن في طريقه إلى إفريقية من أجل فتحها، فوفد عليه أميران من "جشم"، فنصّبهما على قومهما، ثم أكمل مسيرته[14] كما أن عرب قابس حينها فروا عند فتحها وطلبوا الأمان، وهو ما تزامن مع اتجاه الموحدين غربا[15]، وفي سنة 576هـ حينما اقترب الخليفة يوسف من قفصة، طلبت منه قبائل رياح عن طريق أشياخ العرب الأمان في دورهم وأنفسهم، وسارعوا إلى الطاعة، ورغم المواجهات التي حدثت خلال قيام الموحدين بضم الأجزاء الشرقية من بلاد المغرب إلا أنهم اعتبروا أن العملية لم تكن مستعصية، لما تميزت به من تناسق وتتابع وإخضاع للمنطقة[16].

كان الموحّدون يرحّبون برغبة الهلاليين بالدخول في طاعتهم سلما لأن ذلك يوفّر الجهد والوقت في عملية السيطرة والتوسع، وهو النهج الذي تمت على أساسه الاستراتيجية الموحدية بعد أن تأكدوا من أن الهلاليين قد أصيبوا بالضربة الكبرى إثر معركة سطيف،

PDF Creator Trial

التي كانت نتائجها محددا مهما للعلاقة المستقبلية بين الطرفين، فقد أدرك الهلاليون أن قوتهم العددية لا يمكنها الصمود أمام الصرامة الحربية والنضج التكتيكي للجيش الموحدي.

وتبعا لإخضاعها سلما، منح الموحدون للهلاليين بعض الامتيازات كإقطاع أجزاء من الأراضي ومنحهم حق استغلالها، رغم أنهم كانوا خلال حكم المنصور بن الناصر الحمادي يتمتعون بامتيازات أكبر كفرضهم للضرائب على المزارع والبساتين مقابل السلم، لكن عبد المؤمن قلّص من هذه الامتيازات بما يخدم الطرفين.

3. آليات الإخضاع غير المباشر:

1.3 توظيف الخطاب الديني: الخطاب السياسي الموحّدي مغرق في توظيف الدين، لذلك نجد النصوص الموحّدية تعجّ بالأحكام الدينية التي حاولت توزيعها على الهلاليين في الفترات التي تحالفوا فيها مع الحركات التمردية، فقد ارتبط ذكر العرب الخارجين عن السلطة الموحدية والمثيرين للشغب بأوصاف ذات منطلقات دينية، مثلما ورد في إحدى الرسائل الموحدية التي وصفتهم بالمنافقين: "وصار من في قلبه مرض من منافقي العرب وغيرهم بهذه البلاد..."[17] كما رمت الهلاليين المتحالفين مع ابن الرند بـ: "استحلال المحارم جرأة على الله وبغيا،..." واتهمتهم بأنهم "... يرتكبون من الكبائر ما شاؤوا، ويسترسلون من الجرائم والمآثم فيما استهووا وأحبوا، ولا وزاع يزعهم، ولا مانع يمنعهم، ولا قادع يقدعهم ويزجرهم..."[18].

استعمل الموحّدون في أدبياتهم السياسية أسلوب التكفير لجزء من العرب الهلالية ممن كانوا يقفون ضد مشروعهم، ويخص بالذكر في إحدى المواضع قبيلة "رياح":[19]

ولما طغت جهلا رياح وصرصرت دهتها بأمر الله داهية إدّ

فلم تغن عنها اللات شيئا ولا حمى نفوسهم عنها (عنّا) سواعٌ ولا ودّ

وصف الموحّدون الهلاليين بالكفار عندما اعتبروا السبي الذي استولوا عليه إثر معركة سطيف (548هـ/1153م) "سبي كفار": "... يضمّون من سبي الكافرين وغنائمهم"[20]؛ فهل تم تقديم هذا التوصيف لشرعنة عملية السبي ضد الهلاليين المنهزمين في معركة نفوذ بدرجة أولى؟ مقابل رفض الهلاليين التحالف مع النورمان ضد الموحّدين من المنطلق الديني حسبما تذكر المصادر.

يبدو أن ما ورد في النصوص الموحدية ليس مجرد رؤية سياسية، بل يحمل أيضا جانبا دينيا مهما، وهو يطرح من جهة أخرى مستوى تديّن القبائل العربية البدوية ومدى إلتزامها بالأحكام الشرعية، لأن هذا النص يعيدنا إلى بعض الانطباعات التي بقيت راسخة

PDF Creator Trial

حول الأعراب في التراث الإسلامي، وهي انطباعات تعود إلى بدايات الإسلام الأولى، وهو ما نعتقد أنه امتداد أيضا لما ورد في القرآن الكريم الذي ذكر الأعراب وأهل القرى في بعض مواضع القدح، ومن جهة ثانية يبين كيف أن السلطة الموحدية كانت تتكلم باللسان الديني لإدراكها بتأثيره على القبائل الهلالية.

وإذا كان خروج الهلاليين عن صف الموحدين يعتبر حسبهم كفرا ونفاقا؛ فإن الأدبيات الموحدية اعتبرت رجوعهم إلى صف الطاعة ومشاركتهم في الجهاد بالأندلس[21] بمثابة الاستتابة، حيث وردت الأبيات الآتية مؤكدة هذه الرؤية:[22]

ويصحبنا من خالص العرب معشر أنابوا فما ردّوا وتابوا فما ارتدّوا
رأوا في ذويهم عبرة فتيقّظوا وكان لهم في غي غيرهم رشد
ستغزوا بلاد الروم منهم عصائب وتحمي حمى التوحيد من خيلهم جند

ربط الموحّدون التوبة الهلالية بامتثالهم لنداء الجهاد في الأندلس: "وكل من كان من هؤلاء العرب قد أساء الظن بما ركب من قبل من جرم، واكتسب من إثم، وتوقف على داعي الله وقد دعاه إلى ما يحييه على بصيرة وعلم؛ فقد بادر الآن بالامتثال، وفوّض للانتقال، ورجا أن يختم عملُه بالرباط في تلك الجزيرة محتسبا على الله بنفسه، باذلا في طاعة مولاه جهده، مبايعا بذلك ربه حتى يمحو ما سلف..."[23] " ... فعادة هذا الأمر العزيز هي الاحتمال والإجمال، والرفق بالجهّال، ومقابلة البعيد الصعب بالتقريب والإسهال، لتشملهم **التوبة** بحسناها، وتقابلهم الرحمة بأكرم وجوهها وأسناها، وتتناولهم كلمة التوحيد بلفظها ومعناها؛ إذ لا مراد من أهل الدنيا إلا **توبة** يصدقونها، وعقيدة بالإيمان يحققونها، ويد الطاعة يمدّونها إلى الشريعة ويلقونها"[24].

إن ربط الموحدين لتوبة الهلاليين بضرورة الامتثال لمسعى الجهاد في الأندلس، يؤكد توظيفهم لوصايتهم الرسمية على الدين في ضبط السلوك الهلالي وتوجيهه لخدمة مشروعهم السياسي، وما يجدر الإشارة إليه هو أنه في مواضع المدح التي كانت تتطلبها استراتيجية جمع الصفوف وضمان الولاء، كان الموحدون يُثنون على الهلاليين ويذكرون مآثرهم، وأسبقية بعضهم في الإسلام؛ فقد ورد في إحدى الرسائل الموحدية "... وخلال ذلك جمع أشياخ العرب وأعيانهم والمشار إليهم، ووجوههم وكبرائهم من جميع قبائل رياح- وفقهم الله- فذكروا بحقوق هذا الأمر العظيم وآلائه الجزيلة ومننه الجسام، ونبّهوا على ما كان لسلفهم من العرب من كريم السوابق في أوّل الإسلام، وأن الله قد وعد هذه الطائفة المنصورة أن تملك

PDF Creator Trial

العرب كما بشّر به المصطفى- عليه أفضل الصلاة والسلام-، وحرّضوا على أن يكون لهم في نصر هذا الدين ما كان لسلفهم القديم من الآثار الكرام، وعرّفوا أن الغرض فيهم إنما هو غزو الروم الذين بجزيرة الأندلس..."[25].

من خلال هذه المحطات، يتبين أن الخطاب الموحّدي بتوظيفاته المختلفة سعى بالطرق الترغيبية والترهيبية إلى إخضاع القبائل الهلالية، تماشيا مع سيكولوجيتهم.

2.3 التعامل مع الزعامات الهلالية: تطييبا لخواطر الهلاليين وتقريبا لهم من السلطة، قدّم الموحدون في بعض الأحيان رجالا من الهلاليين في وفود المفاوضات؛ فخلال حصار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لقفصة سنة 576هـ أرسل للمتمرد من بني الرند جماعة من الموحدين والعرب لفتحها دون حرب: "... فأرسلنا إليهم أشياخا من الموحّدين والطلبة والعرب- وفق الله جميعهم- فعرّفوهم أنّا نرفع عنهم السيف إن تابوا، ونبذل لهم الأمان إن رجعوا إلى الأمر العزيز وأنابوا؛ فعتوا واستكبروا ..."[26].

وبالتالي فإن الموحّدين لم يعتبروا العرب مجرّد مرتزقة في صفوفهم، وإنما قدّموهم في بعض المهام جنبا إلى جنب مع الموحّدين، لكن ما ينبغي التنبيه إليه هو أن مثل هذا التقديم لم نجد له أثرا- في حدود اطلاعنا- خلال الحملات الموحّدية في الأندلس؛ فهل الأمر يرجع إلى أن الموحّدين أرادوا استغلال أشياخ العرب في مسألة قفصة بما أنهم من ساكنة المجال، وبالتالي يعرفون بني الرند وسبق أن تعاملوا معهم، بل حتى أن جزءًا منهم كان يحارب إلى جانبهم؟

لم يتورّع الموحّدون في ذمّ الزعامات الهلالية التي خرجت عن طاعتهم، وأعلنت العداء لهم؛ ففي سياق الحديث عن بعض فتوحات الموحّدين في إفريقية سنة 555هـ شُنّع بـ"محرز بن زياد" أمير بني علي من بطون رياح: "... في ذكر الخبيث المخبث جرثومة الضلالة والعناد، الكذوب الطاعة والانقياد، المتسمى بمحرز بن زياد، وأمثاله وأقياله بما أعجز الأسماع، وأملأ بالسحر الحلال الرقاع"[27].

وفي المقابل فتح الموحدون باب الرجوع أمام القيادات والزعامات الهلالية التي اختارت في وقت ما الوقوف في وجه الموحدين، لكن بعد تغيّر المعطيات اضطرت لقبول الأمر الواقع، وحاولت استرضاء السلطة الموحدية، هذه الأخيرة استغلت ذلك لصالحها، ومثال ذلك ما يذكره صاحب المنّ من أن شيخ وزعيم بني رياح في بلاد المغرب "جبارة بن أبي العينين" كان قد فرّ لمدة طويلة نحو المشرق بحثا عن حليف سياسي (عون من حكام المشرق) في مصر

PDF Creator Trial

والحجاز واليمن، ولكنه عاد إلى إفريقية دون أن يجد له سندا؛ فوجد أكثر الرياحيين يستعدون لتلبية نداء الجهاد في الأندلس إثر توصلهم بالقصيدتين سنة 565هـ؛ فبادر إلى جمع أتباعه، والمشاركة في هذا الجواز[28].

3.3 الإخضاع بالنظم والتقاليد الادارية:

أ. التعيينات والتقاديم: من مظاهر حرص الموحدين على ضمان الاستقرار على مستوى التركيبة الاجتماعية، وضبط العلاقة مع الإدارة الموحدية، تعيين شيوخ العرب على القبائل بموجب مرسوم، مما يجعل هذا التعيين يكتسي طابعا رسميا تسنده التقاليد التي تسير في إطارها القبائل العربية؛ فغالبا ما يتم التعيين على شكل تسمية أو تقديم، باحترام العرف المعمول به.

ويبدو أن عملية تأطير القبائل العربية مسألة بالغة الأهمية بالنسبة للسلطة الموحدية، ذلك أنها تسمح بضبط النظام وضمان علاقة متينة بين العرب والسلطة، وما يدل على أهمية السياسة التي انتهجها الموحدون تجاه العرب ما أوردته النصوص الموحدية، حيث جاء في تقديم شيخ قبيلة: "... وبعد أن وصل العرب بجموعهم إلى بابنا وبادروا للخير الذي ألفوه في جانبنا، وتعاقدوا على السمع والطاعة وبذل الوسع في الخدمة والاستطاعة، وجرت أمورهم لدينا على أحسن انتظامها، ووادعونا على إدامة النصيحة والتزامها، ووراء ذلكم من نظرنا الموصول ما يفي إن شاء الله بتحسين الأحوال وتمهيد الأوطان وردع أهل البغي والعدوان، وإفاضة العدل والإحسان على كافة أهل البلدان..."[29].

لم يتوان الموحدون في عزل شيوخ العرب الذين يثبتون عدم تعاونهم معهم، واستبدالهم بواحد من أفراد العائلة التي تقع فيها مشيخة القبيلة وفق العرف، حيث يذكر تقديم لشيخ قبيلة أنه تم استبدال ابن شيخ قبيلة عيّن مكان والده بعمّه لأنه "كفر النّعماء، وجلب إلى نفسه بسوء أفعاله الأسواء"[30].

والظاهر أن السياسة الموحدية تجاه القبائل الهلالية أتت أكلها، حيث تمكن الموحدون من بناء جسر ثقة بينهم وبين العرب الهلالية، وتحفّز نصوص التعيينات والتقاديم العرب الهلالية على وضع كامل ثقتهم في الموحدين: "... وثقوا بأنا لا نخليكم من نظر مصلح لجميع أحوالكم إن شاء الله تعالى"[31].

كانت مناسبات التعيين فرصة لإظهار الانسجام والتوافق بين الموحّدين ورعاياهم من الهلاليين، حيث تحرص النصوص الموحّدية على استرضاء القبيلة محل التعيين؛ ففي تعيين

PDF Creator Trial

لشيخ العرب[32] على قبيلة سفيان بأنفا بالمغرب الأقصى من طرف السلطة الموحدية، تظهر حظوة هذه القبيلة لدى الموحدين، الذين حرصوا على ضمان ولائها: "... فاعلموا ذلك، وتنسّطوا (...) الثقة بإحساننا في كل آمالكم، وخذوا في الوصول إلينا، والقدوم علينا [تجدون] كل أمل وبغية وصاحا وسيما، ولتنالوا لدينا الإنعام جزيلا جسيما، ولتحلوا في القرب منّا والاختصاص بنا مكانا حظيا (...) بما يزكو النعم عندكم وينمّيها ..."[33].

ب. الاشتراك في مراسيم البيعة: ورد ذكر العرب في كثير من النصوص المتعلقة بالبيعة، وهو ما يؤكد على الثقل الذي أصبحوا يحوزونه في تركيبة الدولة الموحّدية، واهتمام هذه الأخيرة بالحصول على بيعتهم لما تشكّله من مظهر ولاء وارتباط؛ فقد جاء في عقد بيعة أهل قرطبة بولاية العهد لأبي عبد الله محمد ابن الخليفة أبي يوسف يعقوب: "وبعد، فهذا ما أجمع عليه الملأ بقرطبة وأعمالها- حرسها الله- من الطلبة والموحّدين والعرب والأجناد، والوجوه من الأشياخ والأعيان والقوّاد..."[34]، كما يشير الخليفة الموحدي عبد المؤمن (487-558هـ/1094-1163م) إلى أن القبائل الهلالية في جهات إفريقية كانت من القبائل المتوافقة والمرحّبة بتولية محمد ابن الخليفة على إفريقية، كسائر قبائل تلك البلاد[35].

كما كان العرب ينخرطون في تجديد البيعة مثلما حدث سنة 563هـ، عندما جدّدت بيعة أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين، وقام على إثر ذلك بالإنعام بالبركة على الموحّدين والعرب القاطنين بحضرة مراكش وما جاورها[36]، وفي رسالة أخرى للأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن إلى طلبة غرناطة مؤرخة في 07 جمادى الأول 580هـ، يخبرهم ببيعته، ويدعوهم للاشتراك فيها ذكر العرب في ثلاثة مواضع منها، ويبلغهم أن العرب والموحّدين قد أتموا بيعته في إشبيلية[37].

تؤكد النصوص المذكورة الحضور الوازن للهلاليين وللقبائل العربية عموما في موضوع البيعة، وهو ما يبرز انخراطهم في الثقافة السياسية الموحّدية، وأن حرص الخلفاء الموحّدين على تحصيل بيعتهم على غرار غيرهم من المكونات الاجتماعية دليل على حضورهم الوازن في المعادلة السياسية، وأن اشتراكهم فيها دليل على مسايرتهم للمشروع الموحدي، وتأكيد على أهمية موقفهم.

ج. إشراك العرب في احتفالات الاستقبال والتشريفات والإنعام: عرف البلاط الموحدي بإقامة احتفالات الاستقبال للأمراء والقادة العسكريين، ومرافقيهم إثر الانتصارات العسكرية التي يحققونها؛ فبمناسبة احتفال الإمام أبي يعقوب بمقدم أخيه أبي حفص إلى مراكش

PDF Creator Trial

سنة 560هـ، وانتصار الموحّدين على ابن مردنيش في مرسية: "صُنع للموحّدين الواصلين والعرب ولجميع المقيمين من جميع الأصناف الأطعمة الدارة، والأشربة الحلال المدارة على المسار السارة، مدّة خمسة عشر يوما في نعيم وسرور مقيم، ثم أنعم عليهم بالكسوة التامة من العمائم والغفاير والبرانس والأكسية؛ بأن حصل كل فارس غفارة وعمامة وكسا وقبطية وشقة، وأنعم على جميع الناس الغازين والقاطنين بذلك، وعلى طلبة الحضر، وأدرت عليهم البركة الحافلة من الذهب والدراهم: لكل فارس عشرون دينارا، ولأعيان الموحدين وأشياخهم لكل واحد ماية دينار، ولأشياخ العرب لكل واحد ماية دينار، ولساير عسكر العرب عشرون دينارا لكل فارس"[38].

كما قام الخليفة قبيل جواز سنة 566هـ، وبحضور أشياخ العرب والموحّدين بتوزيع الإنعام: "وخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون دينارا، ولكل رئيس منهم على قبيلة مايتا دينار، وكسا جميعهم بالقباطي والقمص والغفاير والعمائم، وأعطاهم السيوف المحلاة، والدروع السابغات، والبيض والقنا من الرماح الطوال، وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس قسّموها على قبائلهم وأتباعهم ورجالهم، وظهر على العرب والموحّدين وعلى جميع العساكر السرور، وتمكّن لهم الاستبشار والنشاط"، وكان توزيع الإنعام عليهم على النحو الآتي:[39]

	الموحّدون	العرب
الفارس الكامل	10 دنانير	25 دينار
الفارس غير الكامل	08 دنانير	15 دينار
الراجل الكامل	05 دنانير	(الراجل ذكر دون تفصيل) 07 دنانير
الراجل غير الكامل	03 دنانير	/
جدول يوضح توزيع الإنعام على العرب والموحدين قبيل الجواز إلى الأندلس سنة 566هـ		

PDF Creator Trial

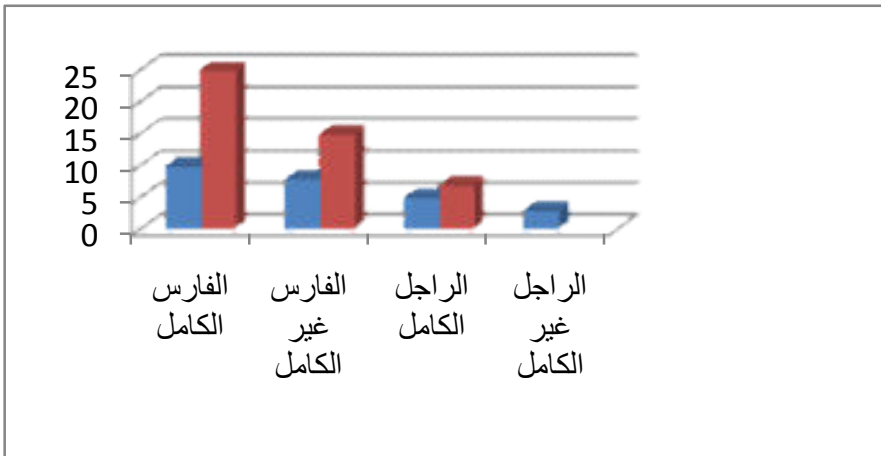

تمثيل بياني يوضح توزيع الإنعام على العرب والموحدين قبيل الجواز إلى الأندلس سنة 566هـ

تحليل النتائج: نلاحظ الفروقات بين الإنعام المقدم للعرب وللموحّدين، ويمكن تفسير ذلك بتعويل الموحّدين على الهلاليين في هذا الجواز نظرا لأهمية الحملة العسكرية التي يقودها الخليفة، ثم إنه كان ينتظر منهم الكثير، ولعل إثارتهم للفوضى إثر تجميعهم من أجل الجواز كانت سببا آخر في مضاعفة الأموال الممنوحة لهم من أجل استرضاءهم وكسب ودّهم وتلافي شغبهم.

وقد كان العرب يدخلون حفلات التشريف التي ينظمها الموحّدون قبيل الحملات العسكرية الكبيرة وفق ترتيب معين يراعى فيه أقدمية القبائل التي دخلت في طاعة الموحّدين؛ فقبيلة زغبة مثلا كانت أول القبائل العربية التي تتقدّم في التشريفات الموحّدية عند حفلات التميز التي تتم بين الحين والآخر عند العرب، وذلك لأنها من أولى القبائل اقتناعا بمذهب الإمام المهدي[40]، وهذا يدخل ضمن البروتوكولات التي أرستها السلطة الموحدية.

4.3 تحييد الهلاليين من التحالفات مع الحركات التمردية: كانت بلاد المغرب الإسلامي، وبخاصة الجزء الشرقي منها مسرحا للتمردات السياسية خاصة في المراحل الأولى للدولة الموحدية، مما شجّع الهلاليين المنتشرين هناك على الانخراط فيها، ذلك أن الطبيعة البدوية للمجموعات الهلالية تنزع إلى استغلال فترات الاضطراب للقيام بالغزو والنهب.

PDF Creator Trial

يعبّر عبد المؤمن عن خطورة العرب الهلالية والنورمان قبل السيطرة على إفريقية معتبرا إياها جمرة وشوكة الأمة: "والجن والإنس مستعيذين من شيطانها، ومردة كل طائفة متحيرة من تمرّدها وطغيانها، قد دوّخت الملوك والممالك..."، ويبدو أن فراغ الساحة السياسية وغياب كيان سياسي قوي في المنطقة جعل الهلاليين يتمادون في تصرفاتهم التخريبية: "حتى ظنت أن الحتوف تهابها، وأمر الله لا يطرقها ولا ينتابها، إغترارا بعددها وعديدها..."[41].

ومن أهم الحركات التمردية التي انخرط فيها الهلاليون حركة "علي ابن الرند" في إفريقية، وقد شبّهت المصادر الموحدية الهلاليين المتحالفين مع "ابن الرند" بالجهلة والذئاب الضالة والفاسدين، وبعد إخضاع الموحّدين للهلاليين إثر هذه الحركة التمردية، استمر هؤلاء في طاعة الموحدين، إلى أن نزل بنو غانية ببجاية سنة 581هـ، ثم اتجهوا نحو إفريقية خلال حكم المنصور الموحدي، حيث نقضوا طاعتهم له، ودعوا العرب إلى الوقوف في صفهم؛ فاستجابت لهم قبائل جشم ورياح ومسوفة ولمتونة من البربر، في حين وقفت زغبة مع الموحدين[42]، وقد تمكن علي بن غانية من السيطرة على أجزاء مهمة من إفريقية، وأصبح يشكّل خطرا على الدولة الموحدية؛ فجهّز المنصور الموحدي جيشا من زناتة ومصمودة وزغبة وجمهور الأثبج، لكنه انهزم في المواجهة الأولى، ثم ألحق بهم هزيمة كبيرة، وإثر الانتصار الذي حققه المنصور استرجع من بني غانية قسنطينة وقابس وقفصة، واستعاد طاعة جشم ورياح من الهلاليين، ونفاهم إلى المغرب الأقصى، حيث أنزل رياح ببلاد الهبط، وأنزل الجشم بتامسنا ومعهم العاصم ومقدم.

إن مواجهة الموحدين لبني غانية وابن الرند بجهات إفريقية أسهم كثيرا في إعادة الهلالية إلى بيت الطاعة لأن التأسيس لجو من النظام واستكمال العملية السياسية الموحدية في المنطقة شكل تضييقا على النزوع الهلالي نحو أعمال السلب والاغارة، كما أن الانقسام والتفكك الذي ظهر بين الهلاليين حيث توزع دعمهم بين بني غانية والموحّدين، وهو أمر يدعو للملاحظة والبحث.

الخاتمة: من خلال ما تقدم، يمكن أن ننتهي إلى أن طبيعة القبائل الهلالية البدوية، وتمرّسها على حياة الإغارة والنهب، وميلها إلى تحصيل المكاسب بأقل جهد وبأدنى مواجهة مباشرة، جعل الدولة الموحدية تبلور استراتيجية تستجيب لهذه الاعتبارات، ويمكن أن نشير إلى أهم الاستنتاجات المتعلقة بموضوع بحثنا على النحو الآتي:

PDF Creator Trial

*إذا كان انتصار الهلاليين في معركة سبيبة ضد الحماديين سنة 457هـ/1065م، حدثا مفصليا أدى إلى سيطرتهم على مجالات إفريقية وشرق المغرب الأوسط؛ فإن معركة سطيف سنة 548هـ/1153م، كانت بوابة إدماجهم وتهيئتهم للاستقرار والخضوع للسلطة الموحدية.

* تنويع الإمبراطورية الموحدية لآليات إدماج العناصر الهلالية بين أسلوب القوة والإخضاع السلمي، وتقديم الهلاليين في وفود التفاوض، وتسميتهم في البيعة، وإعادة توزيعهم جغرافيا، إلى جانب محاولة التغلغل في تركيبتهم الاجتماعية ونظامهم الهرمي من خلال إقرار التعيينات على رأس قبائلها وإعطائها صبغة رسمية، علما أن الموحدين تبنوا الخطاب الديني لفرض سيطرتهم على الهلاليين؛ كل هذه الأساليب والآليات وغيرها دليل على عمق الاستراتيجية الموحدية في كسب الهلاليين، وأخذها بعين الاعتبار لجملة الخصائص التي تميز المجموعات الهلالية البدوية.

*يرتكز سعي الموحدين في إخضاع القبائل الهلالية على رؤيتهم السياسية الهادفة إلى التوسع في المنطقة، وتوحيدها تحت مظلة سياسية واحدة، وهو ما يقتضي توظيف كل العصبيات الخاضعة لسلطانها، وحاول الموحدون من خلال سياستهم تجاه القبائل العربية كسب ودّهم، وهو ما يؤكد أنهم على دراية تامة بأن أسلوب استقطاب العرب وتقريبهم وتعريفهم بالرؤية الموحدية، وإطلاعهم على تفاصيلها وفق مبدأ الشفافية- على المستوى الظاهري على الأقل- ما يزيد من الثقة تجاههم، ولعله من الأسباب التي أسهمت في نجاعة التعامل الموحدي مع القبائل الهلالية، وبالتالي فقد جعل الموحدون القبائل العربية جزءا من الكتلة الحية للدولة، والظاهر أيضا أن الاحتكاك بين العرب الهلالية والموحّدين جعل هؤلاء على دراية بالقدرات التي يمتلكها الهلاليون في الجانب العسكري، لذلك حاولوا الاستفادة منها.

*من جانب آخر يمكن أن نعتبر هذه المحاولات، ومنذ اللحظة التي انتصر فيها الموحدون على الهلاليين في معركة سطيف، تندرج في إطار توسيع القاعدة القبلية لحكمهم، والتي كانت بربرية خالصة (مصمودة)، وهم بذلك يكونون قد خلقوا توازنا جديدا يسمح لهم بإضعاف تبعيتهم لمشيخة الموحدين.

*يبدو أنه مع تواصل عمليات الإخضاع الموحدية بآلياتها المختلفة، أصبح العرب يقدّمون الامتيازات والحظوة على العصبية القبلية التي تجمعهم؛ فقد تفرق شملهم، وتوزع تأييدهم ودعمهم بين الأطرف المتصارعة، وهو تحول مهم يشير إلى نجاح جزئي للاستراتيجية الموحدية في التعامل مع هذه القبائل.

PDF Creator Trial

*لا يمكن إنكار صعوبات الإخضاع التي لاقاها الموحدون خلال محاولتهم إدماج الهلاليين في النظام الموحّدي عموما، وفي نمط الحياة المغربية بصفة خاصة، ومن أهم الصعوبات التي عرقلت هذه العملية التردد الهلالي بين موالاة الموحدين والخروج عليهم، إضافة إلى إثارة الشغب واللصوصية مما يعكر صفو العلاقات، ويهدد الأمن الاجتماعي والاقتصادي، وهو ما ينعكس سلبا على الدولة.

*إن نقل أعداد كبيرة من الهلاليين للأندلس بقدر ما كان خطة استراتيجية لمضاعفة القوات العسكرية الموحّدية هناك، إلا أنه كان في نفس الوقت مغامرة بالنسبة للموحّدين، لما عرفت به هذه القبائل من استغلال فترات الاضطراب للعودة إلى ذاكرتها واستحضار نمط معيشتها من سلب ونهب واقتتال قبلي، لذلك كان التحدي كبيرا بالنسبة للموحّدين في ضبط أمور هذ القبائل.

وبالتالي فإن السياسة الموحدية في التعامل مع التركيبة الاجتماعية لمجالها الشاسع، وبالتحديد مع القبائل الهلالية العربية الوافدة، استجاب للكثير من ظروف المرحلة ولطبيعة العناصر الهلالية البدوية، وهذا يدل على وجود استراتيجية متوازنة لدى الموحدين لتنفيذ مشروعهم السياسي.

الهوامش:

1) أنظر: محمد عادل لطيف: الخوف ببلاد المغرب في العصر الوسيط، زينب للنشر والتوزيع، تونس، 2019، ص.353

2) تم توظيف القبائل الهلالية من طرف بعض القوى السياسية والمذهبية قبل وصولهم إلى بلاد المغرب، فقد انضم بنو سليم والكثير من الهلاليين إلى القرامطة وكانوا حلفاء لـ "أبي الطاهر" وأبناءه أمراء البحرين، وبعد انهزامهم وتغلب "بنو الأصفر بن تغلب" على البحرين بدعوة العباسيين أيام البويهيين تم نقلهم إلى الصعيد والعدوة الشرقية من نهر النيل، أين أحدثوا أضرار كبيرة؛ أنظر: عبد الرحمن بن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1421هـ/2001م، ج6، ص18، ص94؛ كما حاول الزيريون والحماديون قبل ذلك كسب ود القبائل العربية، التي استغلت الانقسامات السياسية لبسط سيطرتها وتوسيع مجالاتها، ورغم ذلك لم يغلق الأمراء الباب أمامهم حيث تعاونوا معهم عدة مرات؛ أنظر: دومنيك فالبرين: بجاية ميناء مغاربي (1067-1510)، (02 أجزاء)، ترجمة: علاوة عمارة، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014، ج1، ص198، وفي فترة لاحقة عمل صلاح الدين الأيوبي (532-589هـ/1138-1193م) على توظيف ما تبقى منهم هناك في الحروب الصليبية؛ أنظر:

Jean-Michel Mouton: Saladin et les Bédouins du Sinaï, dans le livre: Le Sinaï de la conquête arabe à nos jours, édité par Jean-Michel Mouton, Institut Français D'archéologie Oriental, cahier des annales islamologiques 21, le Caire, 2001, p206.

3) لطالما كانت النصوص الت خلّفتها الكثير من الحضارات تعكس صورة سلبية عن البدو، ففي العصور القديمة وردت قصيدة سومرية "زواج مارتو [البدو]" تعود للألف الثالثة قبل الميلاد، واصفة إياهم:

إنهم أولئك الذين يأكلون المحرمات [من] نانا [الجسد البشري] [ليس لديهم] أي تقديس في التجوال باستمرار حولها [يجري] رجس [من] معابد الآلهة، [المحامي] مرتبك ، [يسببون] فقط [اضطراب]، رجل يرتدي حقيبة جلدية ساكن بالخيام [منفوخ] بالرياح

PDF Creator Trial

والمطر، [الذي لا يقدم]، من يسكن في الجبال فلا يعلم أماكن الآلهة. رجل يحفر عيش الغراب عند سفح الجبل ولا يعرف الخضوع، يأكل اللحم غير المطهو، في حياته ليس لديه منزل عندما يموت، لن يدفن. صديقتي - لماذا تتزوج من مارتو [البدو] ؟!

الصورة النمطية التي ترجمتها القصيدة حول البدو على أنهم أولئك المتحررون عن سلطة الحكم والدين استمرت لحقبات طويلة، ورغم أن البدو في عالم مستقر يبدون كالغرباء، إلا أن هيرودوت خلال حديثه عن السكوثيين – وهم شعوب بدوية عاشت في بلاد فارس- يعتبر أن طبيعة حياتهم المبنية على التنقل هي نقطة قوتهم، لأنهم لا يرتبطون بالمحراث، بل يرتبطون بالماشية، وبالتالي لا شيء يمنعهم من التنقل وهو ما يجعلهم لا يقهرون؛ ولأن النظم والقوانين كانت أصلا في الامبراطورية الرومانية، فقد رأى الرومان أن البدو يعيشون حياة وحشية، لأنهم لا يملكون قوانين في نظرهم؛ أنظر:

Päivi Kuosmanen: THE NATURE OF NOMADIC POWER Contacts between the Huns and the Romans during the Fourth and Fifth Centuries, ANNALES UNIVERSITATIS TURKUENSIS, UNIVERSITY OF TURKU, Turku 2013, P31-32.

وبالتالي، فإن الرؤية المركزية نحو المجموعات البدوية هي سمة بارزة في الأنظمة الإمبراطورية التي تسعى لإخضاع ساكنة مجالاتها لقوانينها وجعلها في خدمة منظومتها ومشروعها الإمبراطوري. كما أن بعض النصوص الدينية في الإسلام لم تكن متصالحة مع البدو، لكن الخلفاء اعتمدوا عليهم كثيرا في عملية الفتح واستوعبوا بعضهم في المناطق الحضرية، وأصبحوا عنصرا مهما في الحكم العربي، وفي الوقت نفسه شكّلوا جزءا مهما من جيوش الخوارج وبعض المجموعات التي تمردت ضد الخلفاء؛ عبد الملك بن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987، ص271. كما أن صلاح الدين الأيوبي سعى إلى توظيف القبائل البدوية في مشاريعه العسكرية وفي مواجهة الحروب الصليبية، وانتبه للسياسة الاقتصادية تجاههم والتي بدأها الفاطميون بمحاولة إصلاح وضع الأراضي البدوية أو مسؤولية العرب في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم؛ أنظر:

Jean-Michel Mouton: op cit, p206.

ينبغي أن نأخذ في الحسبان أن البدو لم يكونوا أهل قلم وكتابة، بل كانوا أهل شفاهة، والذين كتبوا غالبا ما كانوا من أهل الحضر والبلاط، وبالتالي فلا نستغرب تلك الانطباعات التي تسوقها الكتابات التاريخية حول البدو؛ ومن الجدير بالذكر أن البدو في بلاد المغرب لم يكونوا طارئين مع الهلاليين، إنما عرفت المنطقة البداوة والحياة البدوية منذ مدة طويلة.

4) ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص334.---- 5) المصدر نفسه، ج1، ص186.----6) مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، تحقيق: لافي بروفنصال، المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1941، الرسالة 09، ص29.---- 7) المصدر نفسه، الرسالة 09، ص30.

8) وادي الأقواس في جهات سطيف، ويبدو أنها منطقة منخفضة بين جبال، تتميز بوفرة المياه والمراعي: "... جهات تلك المراحات والأعطان"، أنظر: ليفي بروفنصال: المصدر السابق، الرسالة 09، ص32، لذلك فإننا لا نستبعد أن اختيار موقع المعركة كان من طرف الهلاليين لأنه يستجيب للشروط التي يتطلبها تخييمهم من وفرة المياه والكلأ، خاصة وأنهم كانوا يصطحبون معهم قطعان كبيرة من المواشي. أما عن موقع هذا الطوبونيم فإن الذاكرة الحالية للمناطق المحيطة بسطيف لم تتمكن من ضمان استمرارية تداوله –على الأقل في حدود بحثنا- وهو ما يجعل من الصعب التحديد الدقيق لمكان المعركة، لكن باستغلال الإشارات الواردة في النصوص –على قلتها- يمكن أن نرجح أنها في الجهة الشمالية لسطيف أين تتواجد بعض الجبال والمرتفعات، والمنطقة تحديدا يبدو أنها منخفضة على شكل وادي، أما الأقواس فربما الأمر يعود إلى أن المنطقة الشمالية لسطيف وحتى الشمالية الشرقية عرفت استقرارا كبيرا للرومان لذلك تنتشر فيها الكثير من المستوطنات الرومانية والمدن والتي عرفت ببناء الأقواس تخليدا للانتصارات؛ لكن ما هو متعارف عليه هو أن التسميات الأماكنية نادرا ما ترد بالعربية الفصحى، لذلك فإن الباحثة في الطوبونيميا الأمازيغية "خديجة ساعد" خلال تواصلنا معها فإنها ترجح احتمالين، لكنهما بحاجة إلى تأكيدات أثرية أو كتابية: الاحتمال الأول: أن تكون التسمية "لقواس" مأخوذة من الفعل "إقاوس" أي: قطر الماء أو رشح، مثل تسمية نقاوس التي تسمى أحيانا لمقاوس وNgawes، بمعنى الموقع الغني بالمياه، الاحتمال الثاني: في اللغة المازيغية هناك الفعل Igawes والذي يعني فتش، وقد تكون المنطقة عرضة للنهب والسلب من طرف قطاع الطرق؛ ونقوم حاليا بإعداد دراسة حول معركة سطيف، ونسعى لجمع المعطيات الطوبونيمية لمحاولة تحديد موقع المعركة.

PDF Creator Trial

9) بروفنصال: المصدر السابق، الرسالة 09، ص31.----10) المصدر نفسه، الرسالة 09، ص.33

11- المصدر نفسه، الرسالة 09، ص33-34.--- 12- المصدر نفسه، الرسالة 09، ص34.---- 13- ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص72.----- 14) بن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص28.---- 15) بروفنصال: المصدر السابق، الرسالة 30، ص98.---- 16) بروفنصال: المصدر نفسه، الرسالة 09، ص28.

17) رسائل موحدية، مجموعة جديدة، تحقيق ودراسة: أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، المملكة المغربية، 1995، ج1، الرسالة رقم 30، ص14.----18) المصدر نفسه، الرسالة 31، ج1، ص151-159.

19) المصدر نفسه، الرسالة رقم 09، ج1، ص81-82.---- 20) ليفي بروفنصال: المصدر السابق، الرسالة 09، ص34.

21) نقل الهلاليين إلى الأندلس كان خطوة بهدفين: تفكيك كتلتهم ببلاد المغرب الإسلامي وبالتالي تسهيل السيطرة عليهم، واستعمالهم في مواجهة النصارى والمتمردين بالأندلس؛ وللاستزادة أكثر في موضوع الدور الهلالي في الأندلس يمكن العودة إلى:

José Ramírez del Río: Documentos sobre el papel de los árabes hilalíes en el al-Andalus almohade: traducción y análisis, AL-QANTARA XXXV 2, julio-diciembre 2014, CSIC, Madrid, pp. 359-396.

Victoria Aguilar: Aportación de los árabes nómadas a la organización militar del ejército almohade, AL-QANTARA XIV, 1993, CSIC, Madrid, pp. 393-415.

22) أحمد عزاوي: المصدر السابق، الرسالة رقم 09، ج1، ص82.---- 23) بروفنصال: المصدر السباق، الرسالة 26، ص.155

24) المصدر نفسه، الرسالة 09، ص29.---- 25) ليفي بروفنصال: المصدر السابق، الرسالة 26، ص152؛ وردت العديد من القصائد التي امتدحت مشاركة العرب الهلالية في الجهاد بالأندلس من طرف شعراء الموحدين؛ أنظر مثلا: المن، ص98، 235-329.

26) رسائل موحدية مجموعة جديدة، المصدر السابق، الرسالة رقم 31، ج1، ص144.---- 27) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص72.---- 28) المصدر نفسه، ص330-331. إن غياب أي ذكر لهذه الشخصية في المصادر التي تؤرخ للمشرق خلال هذه الفترة يجعلنا نشكك في كونه يملك مشروعا سياسيا يريد تنفيذه في بلاد المغرب.

29) Pascal BURESI et Hicham EL AALLAOUI: Gouverner l'Empire. La nomination des fonctionnaires provinciaux dans l'empire almohade (Maghreb, 1224-1269), Casa de Velázquez, Madrid, 2013, p361-363.---- 30) Pascal BURESI: ibid, p 363.---- 31) Pascal BURESI, : ibid, p 363.

32) أشياخ العرب تكونت من زعماء العشائر الهلالية؛ أنظر: عزالدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الاسلامي تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ص144؛ ويتولى شيخ العرب تمثيل القبيلة التي يتزعّمها، ويكون حلقة وصل بينها وبين الحكومة أو غيرها، ولا يستعمل المصطلح في المغرب الإسلامي فقط، بل إنه شائع الاستعمال في مناطق كثيرة، ومن بينها صحراء سيناء، حيث تذكر الوثائق التي تتحدث عن دير القديسة " كاترين" Sainte Catherine أن شيخ العرب كان يقوم بوظيفة التواصل بين البدو ورهبان الدير؛ أنظر:

D. S. Richards: St Catherine's Monastery and the Bedouin: archival documents of the fifteenth and sixteenth centuries, dans le livre: Le Sinaï de la conquête arabe à nos jours, édité par Jean-Michel Mouton, Institut Français D'archéologie Oriental, cahier des annales islamologiques 21, le Caire, 2001, p151.

وللإشارة، فإن بعض مواد الكتاب تقدّم مقاربات مهمة حول علاقة البدو بالمؤسسات الدينية المسيحية، خاصة مع دير سانت كاترين بسيناء.----- 33) Pascal BURESI: op cit, p369.

34) أحمد عزاوي: المصدر السابق، الرسالة 40، ص193.----35) بروفنصال: المصدر السابق، الرسالة 13، ص57.

36) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص271.----37) بروفنصال: المصدر السابق، الرسالة 27، ص161-163.----38) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، ص215-216.-----39) المصدر نفسه، ص348-349.----40) ابن صاحب الصلاة: المصدر السابق، 109. ----41) أحمد عزاوي: المصدر السابق، الرسالة 09، ج1 ص80-81.----42) ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص28.

PDF Creator Trial